

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه
أجمعين أما بعد :

قال رحمه الله تعالى :

[ومن خصائصه على إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين : أنه
أكملهم وسيدهم وخطيبهم وإمامهم وخاتمهم ، فما من نبي إلا وقد أخذ عليه الميثاق لئن
بُعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولننصرنه ، وأمر أن يأخذ على أمته الميثاق بذلك ، قال
الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ
لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا
مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١] يقول تعالى : مهما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم
جاءكم رسول بعد هذا كله فعليكم الإيمان به ونصرته . وإذا كان هذا الميثاق شاملاً لكل
منهم تضمن أخذه لمحمد ﷺ من جميعهم ، وهذه خصوصية ليست لأحد منهم سواه]

لا زال الحديث عند الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في ذكر خصائص نبينا محمد ﷺ التي لا
يشاركة فيها غيره من الأنبياء ؛ فمنها أن ((من خصائصه عليه الصلاة والسلام على
إخوانه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أنه أكملهم وسيدهم وخطيبهم
وإمامهم وخاتمهم ؛ فما من نبي إلا وقد أخذ عليه الميثاق لئن بُعث محمد وهو حي
ليؤمنن به ولننصرنه ، وأمر أن يأخذ على أمته الميثاق بذلك ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ
اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ
وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا ﴾)) ؛ المطلوب من الأنبياء في
هذا الميثاق أمران : الإيمان به ، ونصرته ﷺ ؛ فقالوا في الأمرين معاً : ﴿ أَقْرَرْنَا ﴾ ،
وقولهم ﴿ أَقْرَرْنَا ﴾ يتناول أمرين يفيدهما معنى كلمة الإقرار وهما :

■ تصديق الأخبار .

■ وامتنال الأوامر .

ولهذا قال أهل العلم في كتب العقائد : إن كلمة الإقرار هي أولى ما تعرّف به كلمة الإيمان ، فيقال الإيمان هو الإقرار ، لأن الإيمان فيه قدرٌ زائد على مجرد التصديق وهو إذعان القلب وانقياده وامتناله ، والآية الكريمة تدل على ذلك المعنى ، لأنه طُلب منهم الإيمان وهذا مكانه القلب ، وطُلب منهم النصرة وهذه عمل ، وفي الأمرين قالوا ﴿أَقْرَرْنَا﴾ أي : أقررنا بالتصديق بهذا النبي ، وأقررنا بالنصرة له ، والنصرة عمل ، وكل من الأمرين تتناولهما هذه الكلمة ﴿أَقْرَرْنَا﴾ .

الشاهد أن الله ﷻ قد أخذ الميثاق على جميع النبيين واحداً تلو الآخر أنه إذا بُعث محمد عليه الصلاة والسلام أن يؤمنوا به وأن ينصروه ، وكلهم أقروا بذلك ، وأمروا كذا أن يأخذوا على أمهم العهد والميثاق بذلك ، فهذه خصيصة لنبينا الكريم عليه الصلاة والسلام .

وفي شرح هذه الآية يقول ابن كثير : ((مهما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول بعد هذا كله فعليكم الإيمان به ونصرته ، وإذا كان هذا الميثاق شاملاً لكل منهم تضمن أخذه لمحمد ﷺ من جميعهم)) ؛ وهنا تظهر الخصيصة لنبينا عليه الصلاة والسلام أن هذا العهد والميثاق أخذ على جميع النبيين والتزمه جميع الأنبياء فكان حظ النبي ﷺ منه من جميع النبيين ؛ لأنه خاتم النبيين فلا نبي بعده صلوات الله وسلامه عليه كما قال الله تعالى : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] ؛ فهذه خصيصة لنبينا عليه الصلاة والسلام ليست لأحد سواه .

قال رحمه الله :

[ومن ذلك أنه ﷺ ولد مسروراً مختوناً كما ورد في الحديث الذي جاء من طرق عديدة لكنها غريبة ، وقد قيل إنه شاركه فيها غيره من الأنبياء كما ذكره أبو الفرج الجوزي في كتاب تلقيح الفهوم] .

ثم ذكر هذه الخصيصة لبنينا عليه الصلاة والسلام وهي : ((أنه وُلد مسروراً مختوناً)) ؛ ومعنى مسروراً : أي وُلد وقد قُطع سرّه . وولد مختوناً : أي وُلد على هذه الهيئة مزالة الغلفة التي تأتي على رأس ذكر المولود .

وهذا كما ذكر الإمام ابن كثير رحمه الله جاء في حديثٍ من طُرُق عديدة لكنها غريبة ، وقد بيّن هو رحمه الله تعالى وغيره من المحققين من أهل العلم وأهل الدراية بحديث النبي عليه الصلاة والسلام أنه لم يثبت ، وهذه الطرق التي جاءت في ولادة النبي عليه الصلاة والسلام مسروراً مختوناً طُرُق ضعيفة لا يثبت بها الحديث ، وبعض أهل العم لما رأى كثرة الطرق ولم يمحّص فيها من حيث رجال إسنادها حكم عليه بأنه حديث متواتر ، مثل ما صنع الحاكم رحمه الله تعالى في المستدرک وتعقبه ابن كثير رحمه الله تعالى في ذلك وبيّن أن الحديث ضعيف لا يثبت فضلاً على أن يقال عنه حديث متواتر ، ولهذا يقول ابن كثير رحمه الله في كتابه البداية والنهاية : " وقد ادعى بعضهم صحته لما ورد له من طرق حتى زعم بعضهم أنه متواتر - لعله يشير للحاكم رحمه الله تعالى في كتابه المستدرک - وفي هذا كله نظر " يعني سواء الحكم بصحة الحديث أو الحكم بتواتر الحديث في هذا كله نظر لأن طُرُق الحديث ضعيفة لا يثبت بها الحديث . والإمام بن القيم رحمه الله تعالى في كتابه زاد المعاد أيضاً بيّن ضعف هذا الحديث وعدم صحته ، وذكر رحمه الله أن الأمر يبقى على الأصل في المواليد أنهم يولدون على الأصل المعروف طالما أن الحديث لم يثبت ولا تقوم به حجة ، وذكر في بعض الروايات أن جده عبد المطلب ختنه في سابعه كغيره من المواليد ، وأيضاً مما نبه عليه ابن القيم رحمه الله تعالى أن هذا الأمر لو فُرض أنه ثابت لا يعتبر خصيصة ، لأنه يحصل في بعض المواليد أن يولد مختوناً ، وذكر أهل العلم في ذلك بعض النقولات وبعض الوقائع لبعض المواليد أنه وُلد مختوناً، فلا تبقى هذه خصيصة - هذا على فرض ثبوت ذلك - ، وقد بيّن أهل العلم أن الحديث بذلك لم يثبت ولا يصح ويبقى الأمر على أصله في غيره من المواليد ولا يُخرج الأمر على أصله إلا بدليل صحيح ثابت .

وقوله رحمه الله : ((وقد قيل إنه شاركه فيها غيره من الأنبياء كما ذكره أبو الفرج بن الجوزي)) ؛ أيضاً هذا كلام مرسل ومطلق ولم يُذكر عليه دليل صحيح ، وفي شأن نبينا عليه الصلاة والسلام لم يثبت بذلك الدليل فكيف بسائر الأنبياء وجميعهم !! .

قال رحمه الله :

[ومن ذلك أن معجزة كل نبي انقضت معه ، ومعجزته ﷺ باقية بعده إلى ما شاء الله ، وهو القرآن العزيز المعجز لفظه ومعناه ، الذي تحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله ، فعجزوا ، ولن يمكنهم ذلك أبداً إلى يوم القيامة] .

ثم ذكر أيضاً هذه الخصيصة العظيمة لنبينا الكريم عليه الصلاة والسلام وهي أن معجزته عليه الصلاة والسلام ألا وهي القرآن باقية إلى يوم القيامة ، فهي معجزة خالدة باقية إلى يوم القيامة ، بينما معجزات سائر الأنبياء فإنها انقضت معهم ، فكل نبي انقضت معجزته معه فلم تبقى المعجزة يراها الناس بعد ذلك وإنما انقضت المعجزة مع النبي في حينه ، أما معجزة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام فإنها باقية إلى أن يشاء الله ﷻ ، ومعجزته عليه الصلاة والسلام القرآن العزيز المعجز لفظه ومعناه ، وسبق للمؤلف رحمه الله أن تحدث عن إعجاز القرآن الكريم في لفظه ، وعن إعجازه أيضاً في معناه ، وأن الله ﷻ تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله ، فعجزوا ولن يمكنهم ذلك أبداً إلى يوم القيامة ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

قال رحمه الله :

[ومن ذلك أنه ﷺ أسري به إلى سدرة المنتهى ، ثم رجع إلى منزله في ليلة واحدة ، وهذه من خصائصه ﷺ ، اللهم إلا أن يكون في قوله في الحديث حيث يقول جبريل للبراق حين جمع لما أراد ﷺ أن يركبه : " اسكن فو الله ما ركبك خير منه " ، وكذا قوله في الحديث : " فربطت الدابة في الحلقة التي كانت تربط بها الأنبياء " ما يدل على أنه قد كان يُسرى بهم ، إلا أننا نعلم أنه ﷺ لم يشاركه أحد منهم في المبالغة في التقريب والدنو منه للتعظيم ، ولهذا كانت منزلته في الجنة أعلاها منزلة وأقربها إلى العرش كما جاء في الحديث : " ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو " فصلى الله عليه وسلم] .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذه الخصيصة لبنينا عليه الصلاة والسلام وهي أنه أُسري به إلى سدره المنتهى ثم رجع إلى منزله في ليلة واحدة ، ثم استدرك الإمام بن كثير رحمه الله قال :

((اللهم إلا أن يكون في قوله في الحديث " حيث يقول جبريل للبراق - وهي الدابة التي ركبها النبي عليه الصلاة والسلام ليلة أُسري به - حين جمع - أي البراق - لما أراد أن يركبه ﷺ : " اسكن فو الله ما ركبك خير منه ")) ؛ قوله " ما ركبك خير منه " تفيد أنه قد ركبته قبل ذلك أناس هم دونه في الخيرية ودونه في الفضل ، وهذا من الشواهد أنه عليه الصلاة والسلام أفضل النبيين وخير الناس أجمعين صلوات الله وسلامه عليه ، ففيه شاهد في قوله في الحديث الآخر : ((أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ)) .

وأيضاً يستفاد من الحديث أنه فيه احتمال أن هناك أنبياء ركبوا البراق للغرض نفسه قبل نبينا عليه الصلاة والسلام، والحديث رواه الإمام أحمد في المسند والترمذي في الجامع وحسنه الترمذي رحمه الله وهو من حديث أنس ابن مالك .

كذلك يشهد لهذا قول نبينا عليه الصلاة والسلام : ((فربطت الدابة بالحلقة التي كانت تربط بها الأنبياء)) ، وهذا أيضاً جاء في صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك ﷺ ؛ فقلوه : " التي كانت تربط بها الأنبياء " أيضاً يفيد أن من الأنبياء مَنْ يكون شارك في ركوب البراق وفي حصول هذا الإسرائء والمعراج ، لكن أيضاً يقول ابن كثير أن ما حُصَّ به نبينا عليه الصلاة والسلام - إن ثبت لغيره - فهو أعظم مما ثبت لغيره ، لأن ما كان فيه من الدنو والتقريب من الله ﷻ والحظوة بسماع كلام الله ﷻ من الله ونحو ذلك من المعاني هي من خصائصه صلوات الله وسلامه عليه ؛ هذا إن لم يثبت المعراج لغيره من الأنبياء فتكون الخصيصة حصول المعراج له دون غيره، وإن كان المعراج قد ثبت لغيره من الأنبياء فتكون الخصيصة المبالغة في التقريب والدنو وغير ذلك من الخصائص والمميزات التي حُصَّ بها صلوات الله وسلامه عليه حين عُرج به إلى السماء ، ويستدل لذلك رحمه الله تعالى بالحديث الذي فيه أن مكانة نبينا عليه الصلاة والسلام في الجنة هي أعلى مكانة وهي أقرب مكانة إلى عرش الرحمن كما قال عليه الصلاة والسلام: ((ثُمَّ سَلُّوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنَزَلَةٌ فِي الْجَنَّةِ،

لَا تَتَّبِعِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ)) صلوات الله وسلامه عليه ،
والحديث في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر ابن العاص رضي الله عنهما .

قال رحمه الله :

[ومن ذلك أن أمته إذا اجتمعت على قول واحد في الأحكام الشرعية كان قولها ذلك
معصوماً من الخطأ، بل يكون اتفاقها ذلك صواباً وحقاً كما قُرر ذلك في كتب الأصول ،
وهذه خصوصية لهم بسببه لم تبلغنا عن أمة من الأمم قبلها] .

ثم ذكر رحمه الله تعالى هذه الخصوصية لبنينا عليه الصلاة والسلام أن أمته لا تجتمع -إذا
اجتمعت- على ضلالة ، كما ثبت في سنن الترمذي من حديث ابن عباس مرفوعاً : ((لا
تجتمع أمتي على ضلالة)) ورواه أيضاً الحاكم وصححه . فهذه خصيصة للنبي عليه الصلاة
والسلام ، وهذا الأمر - أن الأمة لا تجتمع على ضلالة - وإن كان للأمة إلا أن أمته ﷺ
حظيت به لفضله وشرفه ومكانته عليه الصلاة والسلام ، فكان من خصائصه هو ﷺ دون
من قبله من الأنبياء أن أمته صلوات الله وسلامه عليه لا تجتمع على ضلالة .

قال رحمه الله :

[ومن ذلك أنه ﷺ أول من تنشق عنه الأرض . ومن ذلك أنه عليه الصلاة والسلام إذا
صُنع الناس يوم القيامة يكون هو أولهم إفاقة ، كما أخرجاه في الصحيحين من حديث
أبي هريرة رضي الله عنه في قصة اليهودي لما قال : لا والذي اصطفى موسى على العالمين ، فلطمه
رجل من المسلمين ، وترافعا إلى رسول الله ﷺ فقال : " لا تفضلوني على موسى فإن
الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش ، فلا
أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله " ، وفي رواية : " أم جوزي بصعقة الطور " . وقد
حمل بعض من تكلم على هذا الحديث هذه الإفاقة على القيام من القبر . ودليله في

ذلك ما وقع روايات البخاري من حديث يحيى ابن عمرو المديني عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: " لا تخيروني على الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أكان ممن صُعق أم جوزي بصعقته الأولى" . وهذا اللفظ مشكل ، والمحفوظ رواية البخاري عن يحيى بن قزعة عن إبراهيم بن سعد عن الزهري عن أبي سلمة وعبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة ، فذكر قصة اليهودي إلى أن قال : قال رسول الله ﷺ : " لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق فأجد موسى.. " وذكر الحديث ، فهذا نص صريح لا يحتمل تأويلاً أن هذه الإفاقة عن صُعقٍ لا عن موت ، وهذا حقيقة الإفاقة ، ثم من تأمل قوله: " فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور " جزم بهذا ، والله ﷻ أعلم] .

ثم ذكر رحمه الله تعالى هاتين الخصوصيتين لنبينا عليه الصلاة والسلام .

■ أما الأولى : وهي قوله ((أنه ﷺ أول من تنشق عنه الأرض)) ؛ فالحديث بذلك ثابت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري وثابت أيضاً في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيهما التصريح بأنه عليه الصلاة والسلام أول من تنشق عنه الأرض حين النشور والقيام لرب العالمين . قال جل وعلا : ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس: ٢١-٢٢] فقبْرهُ عليه الصلاة والسلام هو أول قبر ينشق عن صاحبه ؛ فيكون عليه الصلاة والسلام أول الناس قياماً من القبور ، فهذه خصوصية له عليه الصلاة والسلام على النبيين جميعاً وعلى سائر بني آدم ، وهذا فيه من التشريف والتفضيل له ﷺ ما هو ظاهر معلوم .

■ الخاصية الثانية : ((أنه عليه الصلاة والسلام إذا صُعق الناس يوم القيامة يكون هو أولهم إفاقة)) .

وذكر الدليل على ذلك وهو : ((ما أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي هريرة في قصة اليهودي لما قال "لا والذي اصطفى موسى على العالمين " فلطمه رجل من المسلمين)) ؛ معنى ذلك أنه يفضل على محمد عليه الصلاة والسلام ، فأحد المسلمين لم يحتمل ذلك

فلطم ذلك اليهودي ((وترافعا إلى رسول الله ﷺ فقال : لا تفضلوني على موسى)) وفي الرواية الأخرى قال ((لا تخيروني)) أي : لا تفضلوني ، والمراد بالتخير والتفضيل المنهي عنه : الذي يكون على وجه الخصومة والشدة واللجج والضرب ونحو ذلك ، أما اعتقاد أن النبي أفضل النبيين فهذا لا يُشك فيه والدلائل عليه كثيرة .

قال : ((لا تفضلوني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق)) ؛ وهذا هو اللفظ الثابت : ((أكون أول من يفيق)) فيكون الحديث فيه دليل صريح على خصيصة أخرى لبنينا عليه الصلاة والسلام غير الخصيصة الأولى وهي أنه عليه الصلاة والسلام أول من يفيق .

قال : ((فأجد موسى باطشاً بقائمة من قوائم العرش)) ؛ وهذا فيه دليل أن عرش الرحمن عرش حقيقي ، خلافاً لأرباب البدع الذين يقولون هو مجاز لا حقيقة له ، وهامو نبينا عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح يقول : ((فإذا موسى أخذ بقائمة من قوائم العرش)) فهو عرش حقيقي وهو أكبر المخلوقات وأعظمها ، ولهذا نعته الله ﷻ في القرآن بالعرش العظيم ونعته بالعرش المجيد ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ ﴾ [البروج: ١٥] في قراءة نعت للعرش، ومعنى المجيد : أي الواسع ، لأن المجد في لغة العرب السعة ، وفي هذه إثبات سعة العرش وأنه أوسع المخلوقات وأكبرها وأعظمها ، فهو عرش حقيقي وهو أكبر المخلوقات وله قوائم وأيضاً له حملة كما قال ربنا ﷻ : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٧] . فكل ذلك نؤمن به ونثبت له لثبوت في كتاب ربنا ولثبوت في السنة الصحيحة الثابتة عن نبينا صلوات الله وسلامه عليه ، وأيضاً نؤمن بما جاء في القرآن والسنة أن ربنا ﷻ استوى على العرش ، قال ﷻ : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الأعراف: ٥٤] ومعنى استوى : أي علا وارتفع على عرشه المجيد علواً يليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه .

فإذا قال لنا قائل : كيف استوى على العرش ؟ نقول : كما قال الإمام مالك رحمه الله تعالى : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، يعني الخوض في كيفية صفات الله ﷻ هذا بدعة من البدع التي أحدثها أهل الباطل ، أما الصحابة والتابعون لهم بإحسان ما كانوا يخوضون في هذا الأمر .

قال ابن كثير رحمه الله - لأنه سيورد هنا إشكال جاء في بعض روايات هذا الحديث - : ((وقد حمل بعض من تكلم على هذا الحديث هذه الإفاقة على القيام من القبر)) ؛ جعلهما شيئاً واحداً ، يعني جعل الإفاقة هي الانشقاق .

قال : ((ودليله في ذلك ما وقع روايات البخاري من حديث يحيى ابن عمرو المديني عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " لا تخيروني على الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض ")) هكذا جاء في بعض روايات البخاري لهذا الحديث ((فأكون أول من تنشق عنه الأرض)) .

لما أورد ذلك قال ابن كثير : ((وهذا اللفظ مشكل)) ؛ لأن سائر روايات الحديث جاءت بلفظ ((فأكون أول من يفيق)) لكن هذه اللفظة في صحيح البخاري جاءت بهذا اللفظ : ((فأكون أول من تنشق عنه الأرض)) .

جاء عند ابن أبي العز وهو تلميذ المصنف ابن أبي كثير رحمه الله تعالى قال : " وسبب الإشكال أنه دخل على الراوي حديث في حديث " أحدهما : ((إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من أفيق)) ، والثاني : ((أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة)) ، فالراوي هنا في هذا الطريق دخل عليه حديث في حديث فأثبت لفظة لحديث آخر وجعله في هذا الحديث فقال : ((فأكون أول من تنشق عنه الأرض)) .

قال ابن أبي العز رحمه الله : " وممن نبه على هذا أبو الحجاج المزي وبعده الشيخ شمس الدين ابن القيم رحمه الله وشيخنا الشيخ عماد الدين ابن كثير رحمهم الله " . فكل هؤلاء الأئمة المزي وابن القيم وابن كثير رحمهم الله تعالى كلهم قالوا أن الراوي لهذا الطريق دخل عليه حديث في حديث ، ولهذا يقول ابن كثير هنا : ((وهذا اللفظ مشكل ، والمحفوظ رواية البخاري عن يحيى بن قرعة ، عن إبراهيم بن سعد ، عن الزهري ، عن أبي سلمة وعبد الرحمن الأعرج ، عن أبي هريرة ، فذكر قصة اليهودي إلى أن قال : قال رسول الله ﷺ " لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق فأجد موسى .. ")) .

قال ابن كثير : ((فهذا نص صريح لا يحتمل تأويلاً : أن هذه الإفاقة عن صعق لا عن موت ، وهذا حقيقة الإفاقة)) ؛ أيضا هذا استدلال آخر يستفاد من سياق الحديث وهو

أن الحديث فيه ذكر إفاقة ، والإفاقة تكون عن صعق لا عن موت ، أما القيام الذي يكون من القبور يكون عن موت ، فهذا شيء وهذا شيء آخر .

قال : ((ثم من تأمل قوله : " فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور " جزم بهذا)) ؛ جزم أنها إفاقة وليست قيام من القبر ، فيعلم بذلك أن نبينا عليه الصلاة والسلام ثبت له خصوصيتين اثنتين وهما : أنه عليه الصلاة والسلام قبره أول من ينشق عنه ، وأنه إذا صعق الناس يوم القيامة يكون أولهم إفاقة صلوات الله وسلامه عليه .

قال رحمه الله :

[ومن ذلك أنه صاحب اللواء الأعظم يوم القيامة ، ويبعث هو وأمته على نشز من الأرض دون سائر الأمم، ويأذن الله له ولهم بالسجود في المحشر دون سائر الأمم ، كما رواه ابن ماجه عن جبارة بن المغلس الحماني : قال حدثنا عبد الأعلى بن أبي المساور ، عن أبي بردة عن أبيه أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : " إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة أذن لأمة محمد في السجود ، فيسجدون له طويلاً ثم يقال : ارفعوا رؤوسكم فقد جعلنا عدتكم فداءكم من النار " وجبارة ضعيف . وقد صح من غير وجه أنهم أول الأمم يقضى بينهم يوم القيامة] .

ثم ذكر رحمه الله تعالى أن من خصائص نبينا عليه الصلاة والسلام أنه صاحب اللواء الأعظم يوم القيامة ، والحديث بذلك رواه الإمام أحمد في مسنده ، وقال الألباني رحمه الله في الصحيحة سنده جيد .

قال : ((ويبعث هو وأمته على نشز من الأرض - أي مُرتفع - دون سائر الأمم ، ويأذن الله له ولهم بالسجود في المحشر دون سائر الأمم ، كما رواه ابن ماجه عن جبارة بن المغلس الحماني : قال حدثنا عبد الأعلى بن المساور ، عن أبي بردة ، عن أبيه أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة أذن

لأمة محمد ﷺ في السجود ، فيسجدون له طويلاً ، ثم يقال : ارفعوا رؤوسكم فقد جعلنا عدتكم فداءكم من النار ")) ؛ لكن هذا الحديث ضعيف .

وهنا يكون ابن كثير رحمه الله ذكر أولاً الخصيصة الأولى وهي أنه صاحب اللواء الأعظم يوم القيامة وهذه ثبتت في المسند بإسناد جيد ، أما الأخرى - وهي أنه يُبعث هو وأُمته على نشز من الأرض دون سائر الأمم ويأذن الله له ولهم بالسجود .. الخ - فجاءت في حديث أبي موسى الأشعري وهو حديث ضعيف كما بيّن ذلك ابن كثير نفسه رحمه الله تعالى قال : ((وجبارة ضعيف)) ، وأيضاً في الإسناد من هو أضعف منه وهو عبد الأعلى ابن أبي المساور ، قال الألباني رحمه الله : " وهذا إسناد ضعيف جداً ، ابن أبي المساور قال الحافظ متروك وكذّبه ابن معين " . فالحديث في إسناده علتان فهو لم يثبت فتكون هذه الخصيصة ليس عليها دليل ثابت ، أما كونه عليه الصلاة والسلام صاحب اللواء الأعظم فهذا كما مرّ ثبت في مسند الإمام أحمد رحمه الله تعالى .

وقوله في الحديث : ((جعلنا عدتكم فداءكم من النار)) هذا المعنى جاء فيه أحاديث صحيحة ثابتة في مسلم وفي غيره يكون يوم القيامة يُعطى للمسلم اليهودي والنصراني ويُقال هذا فكاكك أو هذا فداؤك من النار .

قال رحمه الله :

[ومن ذلك أنه صاحب الحوض المورود وقد روى الترمذي وغيره : أن لكل نبي حوضاً . ولكن نعلم أن حوضه ﷺ أعظم الحياض وأكثرها وارداً] .

ثم ذكر رحمه الله تعالى أن من خصائص نبينا عليه الصلاة والسلام ((أنه صاحب الحوض المورود)) ؛ والحوض المورود جاء له أوصاف في سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام تدل على عظمة هذا الحوض وأن طوله شهر ، وعرضه شهر ، وعدد كيزانه عدد نجوم السماء ، وماءؤه أحلى من العسل ، وجاء أيضاً أن من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً ، إلى غير ذلك من الأوصاف التي جاءت للحوض في سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام

قال : ((وقد روى الترمذي وغيره أن لكل نبي حوضا)) ؛ والحديث بما له من طُرُق وشواهد حديث ثابت ، والألباني رحمه الله تعالى أوردته في السلسلة الصحيحة برقم (١٥٨٩) (((إن لكل نبي حوضا)) ، لكن يبقى حوض نبينا عليه الصلاة والسلام أعظم الحياض وأكثرها وارداً؛ فهذه هي الخصيصة لنبينا عليه الصلاة والسلام أن حوضه ﷺ أكبر حياض الأنبياء وأكثرها وارداً يوم القيامة . من الله علينا أجمعين بالشرب من حوضه الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

قال رحمه الله :

[ومن ذلك أن البلد الذي بعث فيه أشرف بقاع الأرض ، ثم مهاجره على قول الجمهور ، وقيل : إن مهاجره أفضل البقاع كما هو مأثور عن مالك بن أنس رحمه الله وجمهور أصحابه . وقد حكى ذلك عياض السبتي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه والله أعلم . ونقل الاتفاق على أن قبره الذي ضم جسده بعد موته أفضل بقاع الأرض ، وقد سبقه إلى حكاية هذا الإجماع القاضي أبو الوليد الباجي وابن بطّال وغيرهما ، وأصل ذلك ما روي أنه لما مات ﷺ اختلفوا في موضع دفنه فقبل بالبقيع ، وقيل بمكة ، وقيل بيت المقدس ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : إن الله لم يقبضه إلا في أحب البقاع إليه . وذكره عبد الصمد بن عساكر في كتاب تحفة الزائر ولم أره بإسناد] .

ثم ذكر الإمام بن كثير رحمه الله تعالى أن من خصائصه عليه الصلاة والسلام ((أن البلد الذي بُعث فيه ﷺ أشرف بقاع الأرض)) وأحب بقاع الأرض إلى الله ﷻ ، وشاهد ذلك ما جاء في حديث عبد الله بن عدي قال : ((رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاقِفًا عَلَى الْحَزْوَةِ فَقَالَ : «وَاللَّهِ إِنَّكَ لَحَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ»)) ؛ فهذا حديث صحيح صريح ثابت عن الرسول عليه الصلاة والسلام في هذا الباب أن مكة البلد الذي بُعث فيه صلوات الله وسلامه عليه أحب البقاع إلى الله ﷻ وأنه خير البقاع .

وابن القيم رحمه الله في زاد المعاد رحمه الله تعالى ذكر معاني عظمة حول البلد الحرام وأنه خير البقاع وأفضلها في كلام طويل له ، يقول في جملة كلامه ذلك : " فَلَوْ لَمْ يَكُنْ الْبَلَدُ الْأَمِينُ خَيْرَ بِلَادِهِ وَأَحَبَّهَا إِلَيْهِ وَمُخْتَارُهُ مِنْ الْبِلَادِ لَمَا جَعَلَ عَرَصَاتِهَا مَنَاسِكَ لِعِبَادِهِ فَرَضَ عَلَيْهِمْ قُضْدَهَا وَجَعَلَ ذَلِكَ مِنْ أَكْدِ فُرُوضِ الْإِسْلَامِ وَأَقْسَمَ بِهِ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ فِي مَوَاضِعٍ مِنْهُ فَقَالَ تَعَالَى : { وَهَذَا الْبَلَدُ الْأَمِينُ } [التين: ٣] وَقَالَ تَعَالَى : { لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ } [البلد: ١] وَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ بُقْعَةٌ يُحِبُّ عَلَى كُلِّ قَادِرٍ السَّعْيِ إِلَيْهَا وَالطَّوَّافُ بِالْبَيْتِ الَّذِي فِيهَا غَيْرُهَا ، وَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مَوْضِعٌ يُشْرَعُ تَقْيِيلُهُ وَاسْتِلَامُهُ وَتُحَطُّ الْخَطَايَا وَالْأَوْرَارُ فِيهِ غَيْرَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ وَالرَّكْنِ الْيَمَانِيِّ . وَثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الصَّلَاةَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بِمِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ فِي سُنَنِ النَّسَائِيِّ وَالْمُسْنَدِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ((صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيَمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ، وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةٍ فِي مَسْجِدِي هَذَا بِمِائَةِ صَلَاةٍ)) ، وَرَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ وَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ أَفْضَلُ بِقَاعِ الْأَرْضِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلِذَلِكَ كَانَ شَدَّ الرَّحَالِ إِلَيْهِ فَرَضًا ، وَلِغَيْرِهِ مِمَّا يُسْتَحَبُّ وَلَا يُحِبُّ . وَفِي الْمُسْنَدِ وَالتِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ الْحُمْرَاءِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ وَقِفٌ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِالْحَزْوَرَةِ مِنْ مَكَّةَ يَقُولُ ((وَاللَّهِ إِنَّكَ لَحَيْرٌ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ قَالَ التِّرْمِذِيُّ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ " انتهى كلام ابن القيم رحمه الله تعالى ، وهو كلام متينٌ مسدد في سوق الأدلة وذكر البراهين على أن البلد الحرام الذي بعث فيه نبينا عليه الصلاة والسلام هو أشرف بقاع الأرض وأحبها إلى الله ﷻ .

قال : ((ثم مهاجره على قول الجمهور)) ؛ يعني يليه في الفضل مهاجره وهو المدينة النبوية طيبة الطيبة . فهي أفضل البقاع بعد البلد الحرام على قول جمهور أهل العلم .

((وقيل : إن مهاجره أفضل البقاع كما هو المأثور عن مالك بن أنس رحمه الله وجمهور أصحابه)) ؛ لكن الذي عليه جماهير أهل العلم والذي تؤيده الدلائل الظاهرة والبراهين الواضحة والحجج البينة ومنها جملة ما ساقه ابن القيم رحمه الله فيما نقلته أن أفضل البقاع وأحب البقاع إلى الله ﷻ هو البلد الذي بُعث فيها نبينا عليه الصلاة والسلام . وأما الحديث

الذي يأتي على ألسنة بعض العوام أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما خرج مهاجراً إلى مكة قال : "اللهم كما أخرجتني من أحب البقاع إليّ فأسكنني في أحب البقاع إليك " فهذا حديث لا يصح وبَيَّن أهل العلم والدراية بحديث رسول الله ﷺ أنه حديث باطل ؛ فهو من حيث الإسناد لا يصح عن النبي عليه الصلاة والسلام ، ومن حيث المعنى أيضاً لا يستقيم ، لأن معناه أن الأحب إلى الله غير الأحب للنبي عليه الصلاة والسلام .

الشاهد أن الذي تعضده الدلائل الواضحات أن أحب البقاع وأفضلها إلى الله ﷻ وإلى نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام - فالأحب إلى النبي ﷺ هو الأحب إلى الله ﷻ - هو البلد الذي بُعث فيه صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((وقد حكى ذلك عياض عن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ﷺ)) ؛ ولم يذكر لذلك إسناداً عن عمر بن الخطاب ﷺ .

ثم قال : ((ونقل - أي القاضي عياض - الاتفاق على أن قبره الذي ضم جسده بعد موته أفضل بقاع الأرض)) قبره الذي ضم جسده المقصود به : التربة التي دُفن فيها صلوات الله وسلامه عليه ، وقد عرفنا أن نبينا صلوات الله وسلامه عليه دُفن في حجرة أم المؤمنين عائشة ؛ فإنه لما مات عليه الصلاة والسلام اختلف الصحابة في عدة أمور وكان أبو بكر ﷺ صديق الأمة يحسم ذلك بما أتاه الله من علم ورواية عن النبي عليه الصلاة والسلام ، فلما اختلفوا في أين يدفن عليه الصلاة والسلام ؟ ذكر لهم أن الأنبياء يدفنون حيث ماتوا ، وقد مات في حجرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، فدُفن صلوات الله وسلامه عليه حيث مات .

قال : ((وقد سبقه إلى حكاية الإجماع على ذلك القاضي أبو الوليد الباجي وابن بطّال وغيرهما)) ؛ ثم ذكر أصل ذلك الإجماع على أن الأرض أو التربة التي دُفن فيها عليه الصلاة والسلام بعد موته صارت أفضل بقاع الأرض فقال : ((وأصل ذلك : ما رُوي)) ؛ وهذه الصيغة كما هو معلوم صيغة تمريض وتضعيف وفي خاتمة ذلك قال ابن كثير : ((لم أرَ له إسناداً)) .

فالأصل الذي بُني عليه هذا الإجماع المحكي : ((أنه لما مات ﷺ اختلفوا في موضع دفنه فقيل بالبقيع وقيل بمكة وقيل ببيت المقدس ، فقال أبو بكر : إن الله لم يقبضه إلا في

أحب البقاع إليه)) ؛ فأخذ من أخذ من هذه الرواية أن التربة التي دُفن فيها عليه الصلاة والسلام هي أحب البقاع إلى الله ﷻ ، لأنه قال " إن الله لم يقبضه إلا في أحب البقاع إليه " . وهذه اللفظة كما أشار ابن كثير - قال ((روي)) ثم قال ((لم أره بإسناد)) - لم تثبت ، وأيضاً جاء في بعض روايات هذا الحديث وألفاظه ما يبين المراد بهذه اللفظة لو ثبت حيث جاء في بعض ألفاظه ((ما قبض الله نبياً إلا في الموضع الذي يُحب أن يُدفن فيه)) . فإذاً معنى قوله ((إن الله لم يقبضه إلا في أحب البقاع إليه)) : أحب البقاع إليه أن يُدفن فيه كما جاء في الرواية الأخرى ((ما قبض الله نبياً إلا في الموضع الذي يُحب أن يُدفن فيه)) ، فلا تكون دالة على تفضيل البقعة على كل البقاع ؛ هذا وجه .

الوجه الآخر : أن هذا قيل في شأن كل الأنبياء ((ما قبض الله نبياً إلا في أحب البقاع إليه)) ، ومعلوم أن الأنبياء دفنوا في أماكن مختلفة، فهذا أيضاً مما ينقض الاستدلال بهذا الحديث على تفضيل هذه البقعة .

فمثل هذا الحديث الضعيف ، وأيضاً المختلف في لفظه والمنازع في الاستدلال به على المقصود لا ينهض لأن يكون معارضاً للأدلة الصريحة الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ في تفضيل بيته الحرام ﷺ على كل البقاع ، فبقى على الأصل وهو أن بيت الله ﷻ الحرام هو أفضل البقاع وأحبها إلى الله ، ولا نخرج عن هذا الأصل إلا إذا كان عندنا دليل صحيح وصريح أيضاً في الدلالة ، وأما هذا الذي ذكره هنا فينازع من يستدل به في صحته ، وينازع أيضاً في الاستدلال به على المقصود ، ويبقى أيضاً هذا الإجماع المحكي هنا ليس قائماً على أصل صحيح يمكن أن يبنى عليه ؛ هذا من ناحية .

من ناحية أخرى : أن هذا الأمر جرّ بعض الناس إلى الدخول في نوع من المغالاة التي لا تُحمد في حق المسلم ، مقام النبي عليه الصلاة والسلام ومكانته ومنزلته العلية محفوظة وثابتة في قلوب المؤمنين ؛ لا يحتاج من الناس وأفراد المؤمنين إلى ذكر أشياء لا أساس لها ولا صحة لها ولا مستند صحيح ثابت لبيان خيرية النبي عليه الصلاة والسلام أو خصائصه أو فضائله صلوات الله وسلامه عليه ، فيبقى المسلم في هذا الباب - كما أشرت سابقاً - مثبِتاً الثابت في الأحاديث الصحيحة ، أما بناء أشياء على أمور لم تثبت وأشياء لا تصح أو بناء ذلك

أيضاً على نوع من المغالاة في حق نبينا عليه الصلاة والسلام فهذا مما لا ينبغي أن يكون عليه المسلم .

ولهذا يقول أحدهم في قصيدة له طويلة في الثناء على النبي عليه الصلاة والسلام وإطراءه واشتملت على أنواع من المغالاة في حقه عليه الصلاة والسلام ، قال في أثناءها : " لا طيب يعدل تراباً ضمَّ أعظمه " ؛ " لا " هنا نافية للجنس يشمل جميع الطيوب ؛ يعني طيب الكعبة ، وطيب الجنة ، وطيب عرش الرحمن .. الخ ذلك . قال : " لا طيب يعدل تراباً ضمَّ أعظمه ... طوبى لمن تشق منه وملثتم " وهذه أيضاً مشكلة أخرى ، نحن عرفنا أن الالتئام وهو التقبيل لا يشرع إطلاقاً إلا لبيت الله الحرام ، النبي عليه الصلاة والسلام قبَّل الحجر الأسود واستلم الركن اليماني ، وعمر بن الخطاب كما جاء في صحيح البخاري لما أراد أن يُقبِّل الحجر الأسود أراد أن يُعلم الناس قال : «إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ» ، فالتقبيل اتباع ، واستلام الركن اليماني اتباع ، واتفق علماء الأمة أنه لا يشرع للمسلم أن يقبِّل أي مكان في الدنيا إلا الحجر الأسود ، ويستلم الركن اليماني - الركن اليماني المشروع فيه الاستلام دون التقبيل ، والحجر الأسود ورد فيه التقبيل وورد الاستلام - فنقبِّل الحجر الأسود ونستلمه ونستلم الركن اليماني اتباعاً لنبينا عليه الصلاة والسلام وسيراً على منهاجه . أما أن يذهب الإنسان إلى أمكنة أخرى يقبِّل مثلاً تربة الأضرحة ويقبِّل الأعتاب ويقبِّل القباب ويقبِّل الجدران ... الخ هذا كله مما لم يشرعه الله .

ثم الإنسان عندما يعمل بهذا الذي جاء هنا "طوبى" ؛ طوبى : الجنة ، الله ﷻ يقول : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: ٢٩] . وهذا يقول هنا: "طوبى لمن تشق منه وملثتم" يعني طوبى لمن يأتي إلى قبر النبي وينتشق ويقبِّل ، من الذي أمرك بهذا؟! هل هناك آية في كتاب الله ؟ هل هناك حديث صحيح عن رسول الله ﷺ ؟ هل هناك أثر مأثور عن الصحابة الكرام ﷺ ؟ فكل ذلك لا يوجد ؛ فالمسلم يتجنب ذلك .

والعلماء رحمهم الله أيضاً لما تحدثوا عن هذه المسألة قالوا : الإنسان عندما يمارس مثل هذه الممارسات يقع في تشبيه بيت المخلوق ببيت الخالق ﷻ ، لأن البيت الحرام هو بيت الله الذي أذن الله لنا أن نستقبله في صلاتنا، أن نتوجه إليه في دعائنا، أن نطوف به سبع مرات

قال تعالى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [الحج: ٢٩] ، وفعل نبينا عليه الصلاة والسلام تقبيل الحجر الأسود واستلام الركن اليماني ... إلى غير ذلك من العبادات المتعلقة بذلك المكان ، فإذا جاء الإنسان ونقل هذه الأعمال - إلى حد أنه وصل الحال ببعض الناس أن يطوف ببعض القبور ، يطوف بها سبعة أشواط وإذا انتهى حلق رأسه ، وبعضهم يلبس الإحرام عندما يريد أن يذهب عند بعض المقابر !! ويُقبل الجدران ويمسح الأعتاب .. الخ - كل هذه الأمور ليست من دين الله ، وهذا كله من الضياع والبعد عن دين الله ﷻ ، وتجرب الناس إليه الخرافة ومن وراء ذلك أئمة الضلال ، قال عليه الصلاة والسلام : ((إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون)) .

فيجب على الإنسان في هذا الباب الخطير - وهو باب يتعلق بالتوحيد ، بالإيمان ، بالاعتقاد - أن يأخذ الأمر مأخذ الحزم والعزم وأن يكون وقفاً عند النصوص الصحيحة ، أمّا أن يأتيه إنسان من هنا وهناك ويقول له مثلاً : "قبور الأولياء ترياق المجربين " يعني تعال جرب وخذ من التربة وسُف من تربة القبر وادفعها بالماء هذا شيء مجرب في الشفاء وفي الإنجاب وفي كذا .. الخ ، بعض العوام يصدّق مثل هذه الخرافات ويتقبلها بسهولة . وأيضاً إذا قُرئت عليه بعض الأحاديث الموضوعة المختلقة المكذوبة على النبي عليه الصلاة والسلام يقبلها ، مثل الحديث الكذب المخلّق الذي ينقله بعض المضلين أن النبي ﷺ يقول "من اعتقد في حجر نفعه" ؛ قال أحد أهل العلم : "هذا حديث كذب موضوع لا نشك أن واضعه من عبدة الأصنام والأوثان" ؛ النبي ﷺ حياته كلها أفناها في محاربة الشرك ومحاربة الوثنية ومحاربة عبادة غير الله ﷻ ثم يأتي هذا المفترى ويقول إن النبي عليه الصلاة والسلام يقول : "من اعتقد في حجر نفعه " !! هذا هدم لكل ما بناه عليه الصلاة والسلام ونقض لكل ما أسسه ﷺ من الدعوة إلى التوحيد . فالشاهد أن الواجب على عبد الله المؤمن أن يكون هذا المقام - مقام التوحيد ومقام الإيمان ومقام العقيدة الصحيحة - مقام لا يُساوم فيه ﴿ وَأَنْفُ الْمَسَاجِدِ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [البقر: ١٨] .

قال رحمه الله :

[ومن ذلك أنه لم يكن ليُورث بعد موته كما رواه أبو بكر وأبو هريرة رضي الله عنهما عنه ﷺ أنه قال : " لا نورث ما تركنا فهو صدقة " أخرجاه من الوجهين ، ولكن روى الترمذي بإسناد جيد في غير الجامع عن أبي بكر ﷺ أنه ﷺ قال : " نحن معشر الأنبياء لا نورث " فعلى هذا يكونون قد اشتركوا في هذه الصفة دون بقية المكلفين] .

ثم ذكر رحمه الله تعالى من خصائص نبينا عليه الصلاة والسلام دون سائر الأنبياء ((أنه لم يكن ليورث بعد موته كما رواه أبو بكر وأبو هريرة رضي الله عنهما عنه ﷺ أنه قال : " لا نورث ما تركناه فهو صدقة " أخرجاه من الوجهين)) ؛ يعني عن أبي بكر وعن أبي هريرة .

قال : ((ولكن روى الترمذي بإسناد جيد في غير الجامع عن أبي بكر ﷺ أنه قال : " نحن معشر الأنبياء لا نورث ")) ؛ يقول ابن كثير رحمه الله في كتابه تحفة الطالب أن الترمذي روى في غير جامعه بإسناد على شرط مسلم عن عمر عن أبي بكر قال : قال رسول الله ﷺ : ((إنا معشر الأنبياء)) الحديث بهذا اللفظ ، قال وأخرجه أحمد والحميدي من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح .

قال ابن كثير هنا : ((فعلى هذا يكونون قد اشتركوا في هذه الصفة دون بقية المكلفين)) ؛ فتكون هذه الخصيصة للأنبياء عموماً دون بقية المكلفين وليست مختصة بنبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

يقول الحافظ ابن حجر في فتح الباري : " وَأَمَّا مَا أُسْتَهْرَ فِي كُتُبِ أَهْلِ الْأُصُولِ وَعَبَرِهِمْ بِلَفْظِ ((نَحْنُ مُعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَث)) فَقَدْ أَنْكَرَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ ، وَهُوَ كَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ لِخُصُوصِ لَفْظِ ((نَحْنُ)) " .

وقال في " موافقة الخبر الخبر " : " لم يوجد بلفظ نحن ووجد بلفظ إنا " ومفادهما واحد ، فلعل من ذكره ذكره بالمعنى ، ونحوه أيضاً قال السخاوي في الأجوبة المرضية وزاد : " وهو بكل منهما ظاهر في العموم في سائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه " .

خلاصة القول : أن هذه الخصيصة ليست خاصة بنبينا عليه الصلاة والسلام وإنما هي لعموم الأنبياء ؛ فجميع الأنبياء لا يورثون وهذه خصيصة لهم دون سائر المكلفين ، وجاء أيضاً في

حديث أبي الدرداء المشهور في فضل طلب العلم ، قال عليه الصلاة والسلام : ((وَأَنَّ
الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ
وَافِرٍ)) ؛ هذا أيضاً يدل على أن هذه الخصيصة لعموم الأنبياء وليست مختصة بنبينا الكريم
صلوات الله وسلامه عليه .

قال رحمه الله :

[فصل ؛ ومما يشترك فيه هو والأنبياء ﷺ أنه ﷺ كان تنام عيناه ولا ينام قلبه ، وكذلك
الأنبياء . وجاء في الصحيح : " تراصوا في الصف فإني أراكم من وراء ظهري " فحمله
كثير على ظاهره ، والله أعلم . وقال أبو نصر بن الصباغ : كان ينظر من ورائه كما
ينظر من قدامه ، ومعنى ذلك التحفظ والحس ، وجاء في حديث رواه أبو يعلى الموصلي
في مسنده عن أنس مرفوعاً : " الأنبياء أحياء في قبورهم يصلّون "] .

ثم عقد رحمه الله تعالى هذا الفصل وهو ((فصل ومما يشترك فيه هو والأنبياء)) ويلتحق
بهذا الفصل الحديث السابق ((إنا لا نورث)) .

فذكر من ذلك : ((أنه ﷺ كانت تنام عيناه ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء)) ؛ قوله عنه
ﷺ أنه تنام عيناه ولا ينام قلبه هذا مخرج في الصحيحين من حديث أم المؤمنين عائشة رضي
الله عنها.

وقوله : ((وكذلك الأنبياء)) رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه من قوله في قصة المعراج ، ومثله لا
يقال بالرأي ، فيكون له حكم الرفع .

قال : ((وجاء في الصحيح)) ؛ هذا أيضاً أمر آخر .

((قال : " تراصوا في الصف فإني أراكم من وراء ظهري " فحمله كثير - من أهل العلم -
على ظاهره)) ؛ وهذا هو الأصل أن تُحمل الأحاديث على ظاهرها وأن تُمر كما جاءت وأن
يؤمن بها على ظاهرها كما وردت ولا يُتكلّف بصرفها عن ظاهرها ، وربنا ﷻ على كل شيء
قدير . والحديث بذلك في الصحيحين من حديث أبي هريرة ومن حديث أنس ابن مالك .

قال : ((وقال أبو نصر بن الصباغ : كان ينظر من ورائه كما ينظر من قدومه ، ومعنى ذلك التحفظ والحس)) ؛ إن كان المراد بالتحفظ والحس أنه دون حقيقة الرؤية فهذا حملٌ للحديث على خلاف ظاهره والأصل أن يُحمل الحديث على ظاهره وأنه كما قال عليه الصلاة والسلام : ((فإني أراكم من وراء ظهري)) .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري بعد أن ذكر من تأوّل الحديث : " وَالصَّوَابُ الْمُخْتَارُ أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى ظَاهِرِهِ ، وَأَنَّ هَذَا الْإِبْصَارَ إِذْرَاكَ حَقِيقِيٍّ خَاصٍّ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنْخَرَقَتْ لَهُ فِيهِ الْعَادَةُ - يعني عادة البشر - ، وَعَلَى هَذَا عَمَلُ الْمُصَنِّفِ - يعني الإمام البخاري - فَأَخْرَجَ هَذَا الْحَدِيثَ فِي عِلَامَاتِ النُّبُوَّةِ ، وَكَذَا نُقِلَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ " . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

فمن خصائص نبينا عليه الصلاة والسلام أنه كان يرى الصحابة رضي الله عنهم من وراء ظهره وهو مستقبل القبلة وهم وراءه رضي الله عنهم ، وهذا أمر خارق للعادة وربنا سبحانه على كل شيء قدير .

ثم ختم رحمه الله تعالى بهذا الحديث قال : ((وجاء في حديث رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده عن أنس مرفوعاً: " الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون ")) ؛ هذا الحديث إن كان ثابتاً فالحياة المذكورة فيه حياة برزخية تختلف تماماً عن الحياة الدنيا ، لأن الأنبياء بما فيهم خاتمهم نبينا عليه الصلاة والسلام باعتبار الحياة الدنيوية قد ماتوا ، ولهذا مرّ معنا آيات عند ذكر نبأ موته عليه الصلاة والسلام مثل قوله ﷺ : ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ، وقوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠] وغيرها من الآيات الكثيرة ، وأبو بكر رضي الله عنه لما ذهب إلى حجرة عائشة ورأى النبي ﷺ وقبله خرج إلى الناس وخطب خطبته المشهورة وقال : ((من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت)) ؛ فالأنبياء عموماً باعتبار الحياة الدنيوية قد ماتوا ، لكن لهم في قبورهم حياة برزخية تختلف عن هذه الحياة الدنيوية وهي أكمل أيضاً من حياة الشهداء ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءُ ﴾ [آل عمران: ١٦٩] يعني أحياء حياة برزخية .

وهذه الحياة البرزخية نحن لا نعلم كيفيتها ولا نخوض في الأمور الغيبية بأشياء ليس فيها عندنا من الله برهان وليس عندنا عليها حجة من كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه

؛ ولهذا يخطئ بعض الناس فيأتي إلى مثل هذه الأحاديث ((الأنبياء أحياء)) ويبنى عليها أمور لا تبنى إلا على الحياة الدنيوية ، مثل أن يذهب إلى قبره ويطلب منه الاستغفار مثلاً ويقول هو حيّ في قبره !! نعم حيّ في قبره لكن حياة برزخية ، ولهذا جاء في صحيح البخاري أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قال : ((ذَاكَ لَوْ كَانَ وَأَنَا حَيٌّ فَأَسْتَغْفِرَ لَكَ وَأَدْعُوَ لَكَ)) قيّد استغفاره لها رضي الله عنها بحياته وإلا ما فائدة هذا القيد ((لَوْ كَانَ وَأَنَا حَيٌّ)) !! . أيضاً يدل لذلك الحديث وهو على عمومته قال : ((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ)) ، ولهذا الصحابة رضي الله عنهم كانوا في حياته يطلبون منه أن يستسقي لهم ، لكن لما توفي رضي الله عنه حصل الجذب في زمن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال : «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا - يعني بدعائه عليه الصلاة والسلام - فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا» . فمعنى قوله ((وَأِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا)) أي بدعائه ، ولهذا قدّم العباس عمّ النبي صلوات الله وسلامه عليه ورضي الله عن العباس وعن الصحابة أجمعين قدّمه ليدعو ويؤمن الصحابة من ورائه .

فمثل هذه النصوص الواجب أن تُفهم على باهما حتى تبقى العقيدة على صفائها والتوحيد على نقائه ويسلم الإنسان من الخرافة والبدع والأمور التي ما أنزل الله سبحانه بها من سلطان .